العدد 2427 - السنة الثامنة
الثلاثاء 20 جمادى الآخرة 1437 - الموافق 29 مارس 2016
Tuesday 29 March 2016 - No.2427 - 8th Year

إعداد : ياسر السيد

من دلائل التوحيد العقلية

مخاطبة العقل واستثارة التفكير أمر نهج عليه القرآن كثيراً في تثبيت العقائد وتقريرها.فهو ينتزع الدليل العقلي الواضح ويقدمه دليلاً يخاطب به كل عاقل، ولما كان التوحيد هو أول واجب على العباد، وآخر واجب، وهو سبب دخول الجنة والنجاة من النار، كانت أدلة التوحيد من الجلاء بمكان بحيث يتسع لكل عاقل فهمها وإدراكها .

ولهذا جاءت أدلة التوحيد العقلية في القرآن الكريم من الجلاء بمكان بحيث لا يستطيع عاقل إنكارها، وهو ما سيتضح جليا عند استعراض هذه الأدلة، وهو ما خصصنا له هذا المقال، فمن تلك الأدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾(الطور:35)، وهذا التقسيم المنطقي يخاطب العقل البشري بالقول إن ما ترون من خلق السموات والأرض والنجوم والمجرات وهذا الخلق العظيم المتسع إما أن يكون خلق من عدم أي من لاشيء، أو أن هذا الكون خلق نفسه بنفسه، ولا شك في بطلان هذين الاحتمالين، فالعدم لا يخلق، والمخلوق لا يخلق نفسه، فلم يبق إلا الاحتمال الثالث، والذي ترك الحق سبحانه ذكره لوضوحه وجلائه، ولكي يصل إليه الإنسان بقليل من التأمل والتفكر، وهو أن لهذا الكون خالقا وربا وإلها، وقد يقال: إن هذا الاحتمال وإن تعين إلا أنه لا يتعين في حق الله تعالى، فقد يكون الخالق غيره، مما لم نره ولم يرسل لنا رسولا، فيقال: لو كان هذا الفرض صحيحا لكان ما تدعونه إلها ناقصا، فهو يرى خلقه يعبدون سواه، ويرى غيره يدعي ما هو مختص به ثم لا يحرك ساكنا، ولا يفعل شيئا تجاه هذا الإله، وهل هذا إلا نوع من العجز أو الإهمال وهي صفات لا تليق بالإله الحق، ثم يقال: من أين عرفتم عن هذا الإله إذا لم يرسل رسله، ولم ينزل كتبه، ولم يعرّف بنفسه، وهل هذا سوى محض توهم، وليس من دليل علمي يسنده، فعلام نترك ما قام الدليل على وجوده إلى ما نتوهم وجوده ؟

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾(المؤمنون:91) وهذه الآية اشتملت على ما يسميه العلماء دليل التمانع: ومعناه أنا لو فرضنا مع الله آلهة أخرى فهي: إما أن تسلم له بالألوهية أو تنازعه إياها. فالفرض الأول يلغي ألوهيتها إذ الخاضع مألوه وليس إلها، وإما أن تنازعه ملكه وسلطانه فيظهر أثر هذا التنازع في الكون في مغالبة الآلهة، وذهاب كل إله بما خلق، بحيث ينفرد كل واحد من الآلهة بخلقه، ويستبد به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا عن ملك الآخرين ، ولغلب بعضهم بعضا كما ترون حال ملوك الدنيا حيث ممالكهم متمايزة، وهم متغالبون، وحين لا ترون أثرا لتمايز الممالك ولتغالب الآلهة، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء .

ولو قال قائل: إن نوعاً من التوافق تم بين الآلهة، فانفرد كل إله بما خلق دون شقاق أو تنازع، لكان في ذلك أيضا أعظم الأدلة على بطلان ألوهيتهم، ذلك أن كل إله سوف تكون ألوهيته ناقصة في حق الطائفة التي لم يخلقها، وهذا يفضي إلى نقص في كل من الآلهة، وهو يستلزم المحال لأن الإلهية تقضي الكمال لا النقص .

وثمة أمر آخر وهو أن تصير مخلوقات بعض الآلهة أوقر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد . فلا جرم أن ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته على الإله الذي تنحط مخلوقاته، وهذا يقتضي أن يصير بعض تلك الآلهة أقوى من بعض، وهو مناف للمساواة في الإلهية .

وأمر آخر وهو ضرورة أن يتمايز خلق كل إله عن غيرهم تمايزا إما في المكان، أو في الزمان، أو في المعرفة، والخلق لا يشهدون هذا التمايز فدل على عدم وجوده .

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ﴾(الإسراء:42) وفي تفسير هذه الآية وجهان:

الوجه الأول: أن من شأن أهل السلطان في العرف والعادة أن يتطلبوا توسعة سلطانهم، ويسعى بعضهم إلى بعض بالغزو، ويتألبوا على السلطان الأعظم ليسلبوه ملكه أو بعضه، وهذا التفسير تأكيد للتفسير السابق .

الوجه الثاني: أن الكفار كانوا يقولون: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (الزمر: 3) فقال الله: لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها أيضاً قربة إلى الله تعالى وسبيلا إليه، ولطلبت لأنفسها المراتب العالية والدرجات الشريفة والأحوال الرفيعة، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلاً إلى الله فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله . ثم إن طلبها القرب من الله وابتغاء السبيل إليه يخرجها عن كونها آلهة، لأن من خصائص صفات الإله استغناؤه عما سواه، وهذه الآلهة المزعومة محتاجة غير مستغنية فكيف يقال بالوهيتها ؟!؟

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾(الأنبياء:22)، ومعنى الآية أننا لو فرضنا وجود آلهة غير الله لأدى ذلك إلى فساد العالم، حيث يتنازع الملك آلهة مختلفون متضادون فيؤدي ذلك إلى فساد العالم وخرابه .

وهذه الآية كسابقتها في إثبات دليل التمانع، كما أنها تؤكد على انتظام أمر الكون من عرشه إلى أصغر ذرة فيه، والتركيب لكل جزء من أجزاء هذا الكون، وارتباط أنواع الكائنات كل واحد بالآخر يكشف عن أن الجزء والكل مخلوقان لخالق واحد عليم قدير حكيم .

فتركيب الذرة الواحدة من نواتها وما يدور حولها إلى تركيب الشمس والكواكب والمجرات، يكشف عن أن خالق الذرة والشمس والمجرة واحد ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ﴾(الزخرف:84)، ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون × الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾(البقرة:21-22).

فهذه بعض أدلة التوحيد العقلية التي اشتمل عليها القرآن الكريم، وهي أدلة واضحة جلية، يفهمها كل عاقل، ويخضع لها كل منصف، فالله هو من أرسل الرسل، وأنزل الكتب، لبيان التوحيد وبيان وجوب عبادته، وأما هذه الأصنام والأوثان والكواكب التي تعبد من دونه والتي تحمل صفات حدوثها، فلم ترسل رسلا، ولم تنزل كتبا، فمن أين يستدل على الوهيتها ؟!! والكون كله يشهد بتوحيده سبحانه، ولو كان هناك إله أو آلهة غير الله لرأيت آثارها وأفعالها ولحدث التنازع بينها، وأدى ذلك إلى اختلال في الكون كله، فهذا يحيي وذاك يميت، وهذا ينزل المطر، وذاك يمنعه، وهذا يعز وذاك يذل، فأي إرادة سوف تسير الكون مع وجود آلهة متعددة ؟!!.

هابيل وقابيل .. وأول جريمة قتل

ذكر سبحانه حاصل أحداث هذه القصة في موضع واحد من كتابه الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين × لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين × إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين × فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين × فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾ (المائدة:27-31).

تحليل أحداث القصة

جاءت هذه الآيات عقيب حديث طويل عن رذائل قوم موسى عليه السلام، الذين خالفوا نبيهم، وامتنعوا عن طاعته، والاهتداء بهديه، وقالوا له بكل صلافة وسوء أدب: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ (المائدة:24). فساق القرآن عقيب ذلك قصة قابيل وهابيل؛ تخفيفا عن الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه، وتبيانا أن الذين عصوا أنبياءهم، واعتدوا عليهم، قد اقتفوا الطريق الذي سلكه قابيل الظالم في عدوانه على أخيه هابيل المظلوم.

ومجريات القصة تفيد أن كلاً من قابيل وهابيل قدّم صدقة قربة إلى الله سبحانه، فتقبل الله صدقة هابيل؛ لصدقه وإخلاصه، ولم يتقبل صدقة قابيل؛ لسوء نيته، وعدم تقواه، فقال قابيل -على سبيل الحسد- لأخيه هابيل: ﴿لأقتلنك﴾، بسبب قبول صدقتك، ورفض قبول صدقتي، فكان رد هابيل على أخيه: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾، فكان ردُّ هابيل لأخيه قابيل ردًّا فيه نصح وإرشاد؛ حيث بيّن له الوسيلة التي تجعل صدقته مقبولة عند الله، ألا وهي التقوى، وصيانة النفس عن كل ما لا يرضاه الله سبحانه.

ثم إن هابيل -الأخ الناصح العاقل- انتقل من حال وعظ أخيه بتطهير قلبه من الحسد، إلى تذكيره بما تقتضيه رابطة الأخوة من تسامح، وما تستدعيه لحمة النسب من بر، فقال لأخيه: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾، فأخبره أنه إن اعتدى عليه بالقتل ظلما وحسدا، فإنه لن يقابله بالفعل نفسه؛ خوفا من الله، وكراهية أن يراه سبحانه قاتلا لأخيه؛ إذ القتل جريمة نكراء شنعاء، ولا سيما إذا كانت من أخ لأخيه!

ثم انتقل هابيل إلى أسلوب آخر في وعظ أخيه وإرشاده؛ إذ أخذ يحذره من سوء المصير إن هو أقبل على تنفيذ فعلته السوداء الهوجاء ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾، بيد أن قابيل لم يرعو لنصائح أخيه، وضرب بها عرض الحائط، ثم اتساق مع هوى نفسه، وزينت له نفسه الإقدام على تلك الفعلة الشنعاء، فارتكب جريمته النكراء، فقتل أخاه حسدا وظلما، فخسر دنياه وأخراه، خسر دنياه؛ لأنه قتل أخاه أقرب الناس إليه رحما، والأخ سند لأخيه وعون له، وخسر أخراه؛ لأنه ارتكب جريمة من أبشع الجرائم وأفظعها.

على أن قابيل القاتل لم يكتف بفعل تلك الجريمة البشعة، بل ترك أخاه ملقى في العراء، معرضا للهوام والوحوش، ما يدل على قساوة قلبه، وشنيع فعله، بيد أن الله سبحانه لا ينسى عباده الصالحين، فهو يرعاهم بعنايته ورعايته، ويكلؤهم بحفظه وحمايته، فقد بعث غرابا يحفر في الأرض حفرة ليدفن تلك الجثة الهامدة التي لا حول لها ولا قوة من البشر، فلما رأى هابيل -القاتل الظالم- ذلك المشهد، تحركت فيه عواطف الإنسانية، وأخذ يلوم نفسه على ما أقدم عليه، وعاتب نفسه كيف يكون هذا الغراب -وهو من أخس أنواع الطيور- أهدى منه سبيلا، فعض أصابع الندامة، وتدم ندما شديدا، ولات ساعة مندم.

ما يستفاد من القصة

تضمنت هذه القصة جملة من الفوائد والعبر:

أولا: أن هذا القرآن من عند الله سبحانه؛ لأن هذه القصة العريقة في القدم، لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم علم بها، وإنما أخبره الله سبحانه بأحداثها كما أخبره بأحداث غيرها من القصص، كما قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ (هود:49)، وذلك لينتفع بها العقلاء بما فيها من هدايات وعظات.

ثانيا: أن تقوى الله وإخلاص النية له قولاً وعملاً، أساس القبول عنده سبحانه، وقد قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ (الكهف:110)، وقال أيضا: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (المائدة:27).

ثالثا: أن الناس في كل زمان ومكان فيهم الأخيار الأبرار وفيهم الأشرار الفجار، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾ (الإنسان:3)، ويمثل هابيل صنف الأخيار الأبرار، ويمثل قابيل صنف الأشرار الفجار.

رابعا: أن رذيلة الحسد إذا تمكنت في النفس، وتأصلت فيها، أوردتها المهالك، وزينت لها البغي والعدوان، والإثم والطغيان، وفي هذه القصة نرى هذا المعنى واضحا تماما؛ فإن حسد قابيل لهابيل كان في مقدمة الأسباب التي حملته على قتله، وكان هذا القتل من الأخ لأخيه هو أول جريمة ترتكب على ظهر الأرض، وقد جاء في الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل -نصيب- من دمها؛ وذلك لأنه أول من سن القتل) متفق عليه. وأخرج الطبري عن عبد الله بن عمرو، قال: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب، عليه شطر عذابهم.

خامسا: أن ندم الإنسان على ما وقع منه من أخطاء، لا يرفع عنه العقوبة؛ لأن هذا الندم أمر طبيعي، يحدث لكثير من الناس في أعقاب ارتكابهم للشرور والآثام. أما الندم الذي يرفع العقوبة عن الإنسان عند الله تعالى، فهو الذي تعقبه التوبة الصادقة النصوح، التي تجعل الإنسان يعزم عزما أكيدا على عدم العودة إلى ما نهى الله عنه في الحال أو الاستقبال، والتأسف على ما فرط في جنب الله، ورد الحقوق والمظالم إلى أهلها.

حديث قدسي

عن أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) أخرجه مسلم في صحيحه.

كن مع الله

من من الناس لا يحب أن يرعاه الله برعايته وحفظه، وأن ينال رضوان الله تعالى عليه ؟ من من البشر يكره أن يكون الله هو مبتغاه، يطمح في الوصول إلى ونيل ما كا عنده من خير وبركة ؟ كل هذه الأحلام والطموحات هي أحلام وطموحات مشروعة بل هي واجبة نظرا لضعف الإنسان واحتياجه الدائم إلى قوة رحيمة ترحمه وتهتم لأمره، من هنا كان لا بد على الإنسان أن يتقرب إلى الله تعالى وأن يكون دائما معه، يرقب أوامره وما يحبه وما يكرهه دائما في كل خطوة من خطواته التي يسيرها في هذه الحياة الدنيا، فإن يكون الإنسان مع الله ليس بالأمر السهل، وكذلك ليس بالأمر الصعب، إنما يتطلب فقط وجود إرادة حقيقية واقتناع تامين، بأن الله هو خير معين، وأنه وحده لا إله إلا هو الأجدر بالعبادة، وأن كل ما سواه مخلوق عنده، وأنه إن ذهب الناس من حول الإنسان فإن الله سيبقى معه وسيكون له نعم السند ونعم المعين، كل هذه الأمور يجب أن يضعها الإنسان نصب عينيه عندما يتعامل مع ملك الملوك، رب السماء والأرض، فالله تعالى هو خير للناس وأبقى لهم من أي شئ أو من أي شخص آخر، لأنه جل في علاه خالق الكون ومدبره والأعلم بحاله الخبير بشؤون خلقه وعباده، فهو لا يفعل شيء عبثا – حاشاه ذلك – إنما كل شيء عن علم بما كان وبما يكون بما سيكون من أحوال الناس والعباد. يكون الإنسان مع الله باتباعه لأوامره واجتنابه لما نهى عنه من منكرات وما حرمه من معصيات، لأن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا وكان فيه خير كثير لنا، كما أننا نكون مع الله بعمل ما يرضاه، وأن نتخلق بالأخلاق الحسنة والطيبة التي هي صمام أمان لضمان الخير في البشرية كلها، حيث يحب الله تعالى أن لا يصدر عنا إلا كل خير وأن نبتعد قدر الإمكان عن القلوب السوداء والأخلاق السيئة والألفظ النابية وأمراض القلوب كالغيرة والحسد والغل والحقد وما إلى ذلك. كما ويكون الإنسان مع الله تعالى عندما يسخر وقته لخدمة البشرية والإضافة إلى هذه الحياة، فهو بهذا يكون قد حقق غاية الله تعالى في خلق الإنسان، إضافة إلى ذلك يتوجب على الإنسان أن يعبد الله تعالى ويكثر من الذكر والدعاء والتسبيح فكل هذه السبل والطرق مآلها الأخير القرب من الله تعالى في الدنيا والآخرة.